Arjo Klamer
Speaking of Economics: How to Get in the Conversation
(Milton Park, Abingdon, Oxon; New York: Routledge, 2007). xxii, 199 p.
(Economics as Social Theory)

حديث الاقتصاد: كيفية استخدام المحادثة

سرمد كوكب الجميل(*)

أستاذ في جامعة الموصل، كلية الإدارة والاقتصاد، قسم العلوم المالية.

صدر في عام ٢٠٠٧ كتاب بعنوان **حديث الاقتصاد** (*Speaking of Economics*) للكاتب أرجو كلامر (Arjo Klamer) ضمن سلسلة: «الاقتصاد كنظرية اجتماعية» (Economics as Social Theory) التي يحرّرها توني لاوسن (Tony Lawson) في جامعة كيمبردج، ومن قبل الناشر روتليدج (Routledge). ويعدّ الكاتب من المتخصّصين بالاقتصاد الحضاري، ويعمل أستاذاً في جامعة إرازموس (Erasmus) في هولندا. وقد تضمن الكتاب ١٩٩ صفحة تناول فيها، عبر ثمانية فصول، مناقشة أفكاره في محاولة منه لتغيير مفهوم الاقتصاد؛ إنها محاولة جريئة عرضها الكاتب بكل إسهاب من أجل فهم واستيعاب جديد للاقتصاد، فقد تناول ما سمّاه «المحادثة» (Conversation)(١) بوصفها المدخل لفهم الاقتصاد والاقتصاديين، وتنطوي تلك المحادثة التي عناها على مضامين اجتماعية تعدّ بمثابة هيكل اجتماعي وثقافي يمكن أن تشكّل مدخلاً إلى فهم الاقتصاد.

يضع الكاتب رأيه في مواجهة سافرة وعنيفة أمام الاقتصاديين، ويطرح ما يشير إلى أنّ الاقتصاد لا يمثل علماً تراكمياً كغيره من العلوم، وفي الوقت نفسه لا يمثل الاقتصاد مرآةً للواقع، ولا يُعنى لا من قريب ولا من بعيد بعلم الكلام وصيغة الخطاب. ويستنتج أن الاقتصاد ما هو إلا شكلٌ من أشكال الحديث، أو قُلْ هو صيغة من المحادثات المنوّعة والمتباينة.

إن طرحاً جديداً يقدمه الكاتب ضمن رؤية ثقافية، أو قُلْ حضارية، يبدو مؤهلاً لها، وعند مراجعة أعماله أشرت خلفيته الاجتماعية ورؤيته المختلفة كلياً على المنهج الاقتصادي المتعارف عليه. وما يؤكد ذلك تركيزه في كتابه على معطيات اجتماعية، منها الانتباه أو الاهتمام (Attention)، فهدف الاقتصادي يتمثل في بحثه عمّن يهتم به وينتبه إلى حديثه، ويبرّر هذا الأمر من خلال مشاهدات ووقائع، ويبدو هنا سلوك الاقتصاديين مثله كمثل سلوك الممثلين ونجوم الفن.

الجانب الآخر الذي يناقشه كلامر في كتابه هو الثقافة الاقتصادية، ويقول إن علم الاقتصاد له ثقافته الخاصة به، لا بل إنّ كل فرع

(*) البريد الإلكتروني: sarmad_aljamil53@yahoo.com.

(١) ترجمة Conversation تارة إلى حديث وتارة أخرى إلى محادثة بحسب السياق.

من فروع الاقتصاد له ثقافته الضيقة، ويستشهد بوقائع تشير إلى عدم تمكّن الاقتصادي المتخصّص في جانب معيّن من فهم نظيره الاقتصادي المتخصّص في جانب آخر. بعبارة أدق، إنّ ما يقوله كلامر هو أن لكل حقل اقتصادي ثقافة مختلفة في فهم العالم والحدث والواقعة الاقتصادية، ويبدو أنه يعني أنّ لكل اقتصادي ثقافة معينة في فهم الظاهرة الاقتصادية، وهذا يقود إلى كيفية فهم عالم الاقتصاد ككل.

ولغرض توضيح الكاتب لنظريته، تناول مقارنة بين منهجين اثنين، وعبر اقتصاديَيْن اثنين، هما كينز وأسلوبه في عرض نظريته العامة التي تعدّ امتداداً لثقافة القرن التاسع عشر القائمة على المنهج الوصفي، وبين من أتى بعد الحرب العالمية الثانية، ولا سيما في النصف الثاني من القرن العشرين، ويحمل ثقافة التجريد الرياضي. وهنا يكون الكاتب قد دخل في مقاربات علمية وحداثوية في الاقتصاد، وربما يكون قد أصّل أمراً في الكتاب يختلف مع ما جاء به في أهمية ومضمون الخطاب والبلاغة والحديث في الاقتصاد، الذي دحضه **أولاً** في نفيه للتراكم المعرفي في الاقتصاد، و**ثانياً** في عدم فاعلية حديث الاقتصاد، بسبب تباعد ثقافات المجتمعات بعضها عن البعض الآخر. وهو يسوق حديثه مع الاقتصاديين ورجال الأعمال الإيطاليين ومناقشاتهم الحادة التي ربما لا يفهمها غيرهم، فكل مجموعة من الناس لهم تاريخهم وتراثهم ولغتهم التي حتى وإنْ عرفتها، فإنك ستكون خارج دائرة الحديث في ما بينهم.

أولاً: محتوى الكتاب وفصوله

كان **الفصل الأول** بعنوان «غربة فرع من فروع العلم»، وقد افتتح بمعادلة غريبة بمضامينها تقول: كبير + مهم = طبيعي (Big + Important = Normal) والمضمون الذي يقف وراء هذه المعادلة يتمثل في الاقتصاد بوصفه حقلاً معرفياً واسعاً، وعلماً مهماً بين العلوم الأخرى، وأهميته التي تتعدّى كل الحدود، علماً بأنه يبدو طبيعياً في فعله، فما عدا كل هذا، ما هو الاقتصاد؟، فهل يكون الاقتصاد غير ذلك؟، إذ يلتحق الآلاف من الطلاب سنوياً لدراسة هذا العلم بحكم المنزلةِ الأكاديميةِ التي يتميّز بها من باقي العلوم الاجتماعية، وإذا بهم يَكتشفونَ أنّ الاقتصاد هو ذلك العلم الاجتماعي الذي ينفرد بامتلاكه لجائزة نوبل. والأهم من هذا، تلك الارتباطات التي يرتبط بها الاقتصادي بالحكومة وتوابعها، ويكون دائماً بالقرب من متخذ القرار.

إن أهمية الاقتصاد تكمن في كونه يساعد في فهم عدد غير قليل من المشاكل والقضايا الرئيسية، ولهذا يجد المرء تبايناً كبيراً في اقتصاديات الدول بعضها عن بعض، والأهم من هذا يعالج الاقتصاد قضايا رئيسية في المجتمعات منها البطالة والفقر ... الخ، وكيف تعمل النقود في الاقتصاد؟ ويستشهد الكاتب بأمر مهم وقيّم، فقد قرأ للكثير من الاقتصاديين، فكانت وقفاته معهم أمراً عادياً، باستثناء الاقتصادي تنبرغن (Tinbergen)، فهو قدوته وبطله المفضل. ثمّ يستطرد ليعرض القضايا الفرعية في الفصل، ومنها الشكّ والسخرية في الحياة العادية، ويعقبها بالحياة السياسية، ويتبع ذلك بعنوان مفاده «غرابة الموضوع» يطرح فيه سؤالاً هو: ماذا يتحدث الاقتصاديون؟

ويسترسل الكاتب في حديثه، ويقارن بين حديث الاقتصادي وحديث المثقف الذي قد يسْخر منه، وإذ يعرف المثقفون بأنهم الناس المهتمون بالفن والأدب، وما شاكل ذلك، فإن

الاقتصاد والاقتصاديين مجرّدون من الثقافة، فلا وجود لاقتصادي في رواية، بل هم يكونون في خضمّ مواضيع قمعت أصحابها، وغياب الاقتصاد في الأدبيات الكثيرة وعدم وجوده في الروايات أو في الثقافة بشكل عام أمر خلقه الاقتصاديون أنفسهم بنظرياتهم ونماذجهم.

ويستطرد الكاتب بالحديث عن عناوين قلّ من يتقنها، ومنها: المرونات، والخيار العقلاني، والمؤثرات الخارجية، والمنافع العامة، ومضاعف الدخل، إلى غيرها من المفاهيم التي يتحدث بها الاقتصادي، كما يتحدث الفرد عن الطقس أو المناخ، لا بل يتفنّن الاقتصادي في المبالغة، حتى في مزاحه، بمثل هذه المصطلحات، وهذا ما عاناه الكاتب إلى حين ممارسته التدريس، فقد استطاع بعد ذلك أن يتحدث في الاقتصاد، ويجيد الحديث فيه، وكأنه قد تعلّم لغة أجنبية.

ويعرض الكاتب **الفصل الثاني** بعنوان «الاقتصاد محادثة أو أفضل حزمة محادثات»، ويبدأ بعنوان فرعي هو «وتستمر الغربة»، ومضمون الفكرة أن الغربة التي يعانيها الاقتصاد لا تكمن في الاقتصاد أو الاقتصاديين فحسب، وإنما في فكرة التوقّعات التي يبنى عليها الاقتصاد، والتي لا يستطيع الناس إدراكها.

وغالباً ما يربط الناس هذا التوقع بالصورة الذهنية التي يحملها الفرد أو المجتمع عن الواقع من مفاهيم وسياقات وطقوس ومصالح؛ إنه علم يدرس النظريات العلمية ومبادئها وأسسها، وليس ما يرى الناس في العلم. ويؤكد الكاتب استخدامه للمحادثة (Conversation) وإصراره على استخدام هذا المفهوم، ويبرر ذلك لأهمية المحادثة في التفاعل، كما يضع ذلك بوصفه استعارة مقابل آخرين ليجعل من الاقتصاد علماً ذا معنى، وأن ما يفعله الاقتصاديون يذهب إلى جسم المعرفة وتراكماتها. إنه منطق ومرآة، وإنه البرنامج البحثي، كما إنه الواقعية بحدّ ذاتها؛ إنه الأيديولوجيا، بل إنه السلع التي يتم تداولها في السوق؛ إنه المحادثة، وإنه العملية الاجتماعية، وهنا نكون قد عدنا إلى ما بدأنا به المحادثة.

ويتناول الكاتب أيضاً سمة المحادثة العلمية، ويطرح ما سمّاه معايير لعبة المحادثة العلمية الاقتصادية التي تندرج تحتها القيود المؤسساتية للمحادثة، والمحيط المادي أو البيئة المادية المحيطة به، والقيود والمحدّدات الاقتصادية، والمعايير العلمية، والمحدّدات والإمكانيات التقنية، والقيود الاجتماعية للمحادثة، والجامعات والكليات والشبكات المخفية، والجمعيات وغيرها، وكذلك العمل العلمي الحرّ، ولعبة شدّ الانتباه وتركه، والتعليم والثقافة العلمية، والانفعال العلمي، والعواطف، والأطر والحدود، وبرنامج البحث العلمي، ونوعية الحجج والأخلاقيات الصحيحة.

ويعرض الكاتب في **الفصل الثالث** العنوان الرئيسي بصيغة أو بأخرى، هي «متطلبات ثقافة المحادثة الاقتصادية». ويطرح في البداية عنواناً فرعياً مضمونه «المحادثة والوظيفة»، وفيه يقول ما معناه إن المحادثة تجعلنا نعرف من نحن! ويقول: «علينا أن نحادث لنفعّل حياتنا الإنسانية»، كما يقول أيضاً: «وعلى الرغم من كثرة المحادثات التي نحادث بها، إلا أنني أرجّح التركيز على محادثة الناس لجعلهم يحادثون مثل الاقتصادي الأكاديمي. ودعوني أسرد قصتي مع الاقتصاد الكينزي، فلم تكن لديّ أية فكرة عن ماذا أقرأ، ولكن علمت أنه يدور حول النقد، وماذا يمكن أن تفعله النقود في الحياة، وكان لا بد من

فهمه، ولم أكن أستطيع مناقشة ذلك مع أصدقائي، بحكم أنهم لم يكن عندهم القدرة على ذلك، لكن علمت أن هناك شيئاً آخر أكبر من ذلك هو الاقتصاد». وهنا مقارنة بآدم سمث الذي لم يكن يملك الخبرة في ذلك الوقت. وبعد حديث طويل، يختم بكون العلوم الطبيعية والرياضيات بمثابة الأرضية التي ينمو فيها الاقتصاديون، ولدى كل اقتصادي قصة معينة، وأن المطلوب منه كثير، والناس تطلب المزيد، ولكن بعد هذا وذاك يبقى حديثاً اقتصادياً.

ويناقش قضية «غربة الاقتصادي»، ويقول: «إنّ لمعشر الاقتصاديين ثقافة منفصلة، وإذا نظرت إليهم من خارج ثقافتهم تجدهم غرباء مختلفين وبصفات وسمات غير متوقعة، وكأنما الطرح ضمن القالب المنهجي في تشكيل نموذج أو معادلة هو كل ما يهمهم، فهم غير معنيون بالسؤالين: لماذا؟، وكيف؟، في معالجة الظاهرة، فإذا لم يهتم الاقتصاديون بالعالم الحقيقي أو ميدان الظاهرة، فأين يتجه تفكيرهم، وما هي توجهاتهم؟ ومن هنا لا يكون لهؤلاء الاقتصاديين توظيف نافع أو أهمية تذكر».

ويعرض الكاتب لثقافتين مختلفتين: الثقافة الأكاديمية، وثقافة المؤسسة الحكومية البيروقراطية، ويتناول غموض القيم الأكاديمية، ذلك أنهم ديمقراطيون في أكاديمياتهم، والعكس في ميدان الواقع. هم بارعون في مناقشة مصالحهم مع السياسيين أو رجال الأعمال، والعكس في ما عدا ذلك.

ويعرض الكاتب في **الفصل الرابع** الذي جاء بعنوان «هو الانتباه!»، إذ يفتتح الفصل بمقولة مفادها «اسم اللعبة»، ويعقّب ذلك بعنوان «أن تكون مشغولاً وتائهاً»، كما يردف حديثه بسؤال: ما الانتباه؟ فيعرّفه بأنه توجيه فكر الفرد ووعيه باتجاه ظاهرة معينة، ويقول: «على الرغم من كل ما عرضه السايكولوجيون حول هذا الموضوع، فإنه لا بد من توظيف الانتباه إلى المحادثة»، ويؤكد أهمية الانتباه إلى الاقتصاديين، وهذا ما يطرحه تحت عنوان «الحقائق القاسية». وهو يعرض المزيد من الحقائق والشواهد عن البحوث الاقتصادية والدوريات العلمية والمؤتمرات، وكيف يمكن أن يتحول ويجذب الانتباه إلى هدف بحدّ ذاته، وعندها يصبح العلم لعبة في منافسة ضائعة.

وبعد مناقشة طويلة، يطرح الكاتب سؤالاً هو: كيف نحصل على شدّ الانتباه؟ ويقارن بعدد من معطيات الثقافة: السينما والأدب والموسيقى، وغيرها. كل تلك النتاجات تُطْرَحُ، ولا تجد لها سوقاً أو منصتاً أو مستمعاً أو مشاهداً. ويستشهد بأن من يَدّعي الانتباهِ يمثل مساهمة رئيسية في إنتاجِ المعرفةِ، وذلك هو دخل الانتباهِ العامل الذي يُحفّزُ العلماءَ أكثر. ويدخل الكاتب في تحليل الطلب على الانتباه، ذلك أن الانتباه والإدراك يعوضان بالدخل النقدي المتخلى عنه، وكلما زاد الانتباه أعطى العلماء إحساساً بالمزيد من العطاء، فتكون المؤتمرات والبحوث والسفر، وهذا بحدّ ذاته يمثل طلباً على الانتباه الذي يقابله مزيد من العرض من العلماء، والمزيد من البحث، والمزيد من الحفز على البحث، فيكون هناك مزيد من الائتمان للعلماء نحو المعرفة العلمية.

ويدخل الكاتب في تحليل رقمي للعملية التي تفوز بها النظرية، ويمثل ذلك بالذي يصبح نجماً من نجوم السينما والفن، بحيث تحوز تلك النظرية وصاحبها كل الانتباه والاهتمام. ويستطرد الكاتب في شرح المزيد، ولا سيما في مسألة من يرغب في جذب الانتباه من الاقتصاديين، الذي عليه أن يتعنقد أو يعمل منفرداً تحت علم معين، وهو يعني ما يقول.

وجاء بعد ذلك ليشرح **الفصل الخامس**، وقد ورد تحت عنوان «أية محادثة علمية جيدة أو مساهمة صادقة وذات مغزى تخدم مصالح معينة». وابتدأ بالردّ على بعض الأفكار، ومنها محاولة الكاتب التساؤل حول العلم والحقيقة، ثم كيف يمكن بلوغ المعايير العلمية؟ وهل يمكن بلوغ الميدان؟ ويطرح الكاتب محاولة الحديث عن ميدان وممارسة الاقتصاد، وهنا يسأل: هل يذهب الطلاب من خلال النماذج والرياضيات والمعادلات والانحدار نحو تحقيق أهدافهم؟ ويسعى المهنيون إلى تقييم تلك الفرضيات والأدوات والحجج والمنهجيات والنماذج، ويصدر التعليق بالرغبة في هذا النموذج أو تلك الورقة البحثية التي تجد من يبرّر اقتراب علم الاقتصاد من العلوم الطبيعية، متناسين أو مبرّرين عدم واقعية الفرضيات بما يمكن أن تتنبأ به النظريات، وأن الدقة في التنبؤ هي مسألة وقت ليس إلا!

وقد كتب كلامر فصلاً تحت عنوان «علم الاقتصاد: توقعات وآمال»، وعقد المقارنات بين الفلسفة والاقتصاد، وهل ينبغي التفلسف في الاقتصاد؟ ويجيب عن ذلك بأن المهنيين تهمهم مصالحهم، والنتيجة هي الحاجة إلى المزيد من المحادثة، فهي العامل المؤثر في ما بينهم وانعكاسات المحادثة تكون أكبر وأهم.

ويطرح ثلاثة مرادفات، هي: الحقائق، والمعاني، والمنافع، ويبدأ بمثال عن مساهمة المحادثة الاقتصادية، ويشبهها برمي حصاة صغيرة في بركة ماء راكدة، بحيث تكوّن موجات دائرية تكبر وتكبر، ولكنها كلما كبرت قلّ حجمها. وعلى أية حال، فإن ذلك أفضل من رمي عدة حصوات في بركة، ولكن أياً كانت المساهمة، فلن تحرك المياه في البركة، باستثناء كينز ونظريته[٢] التي أتت بموجات كبيرة جداً، وأحدثت موجة هادرة. هذا يعني أن المعنى يمكن أن تكون مساهمته كبيرة ومهمة، ومن ثم المنافع المحققة منه، والسؤال هو: كيف يمكن أن تكون المعاني والمنافع هي المساهمة؟ ثم ما هي المنافع أو مضامين البحث؟ وما هي مصداقية من يدّعي المساهمة؟ وهنا يشرح بالتفصيل حقيقة المساهمة في المحادثة ومعناها ومنفعتها.

فأية مقولة معينة هي التي لا بد من أن تتطابق مع الواقع؟ وهل هي حقيقية وما مصداقيتها؟ ثم ماذا عن النموذج والنظرية؟ وهل تضع علاقة قوية بالمعرفة العلمية؟ وهل تنطوي على معنى ومضمون؟ وهل تخدم المنافع والمصالح المقصودة؟ وهل هي مفيدة ونافعة؟

وبعد هذا يطرح الكاتب نتيجة حاسمة سمّاها «المحادثة»، وكيف أن عدداً من طروحات الاقتصاديين كانت خاطئة، بينما بقيت أخرى هي الأساس في بناء المنافع. وينتهي الفصل بعنوان مفاده: «ماذا بعد؟» يناقش فيه نوعين من الاقتصاديين: المجتهد الحاذق، والكسلان المهمل، وكيف أنهما من خلال المحادثة يدركان فحوى قضيتهما.

ويشرح الكاتب في **الفصل السادس** بعنوان «فن الاقناع الاقتصادي من الخطاب إلى الحقيقة»، ويقصد الكاتب بالخطابات استخدام الكلمات أو أية وسيلة أخرى للاتصال، ويطرح السؤال: ماذا تعني الخطابات لنا؟ ويعرض للجدلية، وكيف تقادُ المحادثة.

(٢) J. M. Keynes, *The General Theory of Employment, Interest and Money* (London: Macmillan and Co., Ltd., 1936).

وفي **الفصل السابع** يطرح عنواناً طويلاً: «لماذا تستمر الخلافات بين الاقتصاديين، ولماذا يحتاج الاقتصاديون إلى ربط أنفسهم بالخلافات من خلال محادثاتهم المتوازية خلال الزمن، وماذا يمكن أن يُنْتَفَعَ من معرفة الاقتصاديين التقليديين (الكلاسيك) والنقديين وما بعد النقديين؟». وقد تضمن الفصل قسمين: **الأول** حزمة المحادثات، وهي ليست كما يظن بالبساطة المعهودة التي تبدو عليها، والقسم **الثاني** جاء بعنوان «المحادثات تتغير دائماً، ولا يمكن القول إن هذه المحادثة هي الأخيرة».

واختتم الكتاب بـ **الفصل الثامن**، وكان بعنوان مثير: «كيف ولماذا تختلف المحادثات اليومية بين الأكاديميين، وكيف ولماذا تختلف محادثات الاقتصاديين الأكاديميين مع السياسيين؟». ويطرح فجوة الغباء، ويقول إن الاقتصاديين يعملون في الطابق العاشر، ويختتم بالقول: «لماذا علم الاقتصاد ليس بذلك العلم الغريب؟».

ثانياً: الملاحظات على هذا الكتاب

بعد هذا العرض لما أتم به الكاتب صفحات كتابه، كان لا بد من الوقوف على أهم الجوانب التي وردت ومناقشتها ضمن الإطار العام الذي طرحه الكاتب. وفي ما يلي أسجل بعض الملاحظات عليها:

١ ـ الثقافة الاقتصادية

يطرح الكاتب أمراً مفاده أن للاقتصاد ثقافته الخاصة به، التي تقع ضمن مضامين الثقافة العامة. هذه الخصوصية الثقافية شكّلت نقطة ضعف للاقتصاديين من حيث عدم قدرتهم على الحديث إلا ضمن تخصّصهم نفسه. وهذه التخصّصية العالية جعلت لهم القدرة على دخول الاقتصاد والخروج منه، وجعلت للاقتصاديين طقوسهم وقيمهم ولغتهم الخاصة بهم.

٢ ـ الخطاب الاقتصادي

نجد من خلال المراجعة البسيطة للنتاجات العلمية للكاتب أن معظم أعماله العلمية تعتمد على مدخل الخطاب الاقتصادي الذي يركّز على علم الاجتماع والمعنى الثقافي والبلاغي، بالإضافة إلى الأوجه الخطابية للعمل الاقتصادي وممارسته كمهنة في الميدان. ومن هنا، فقد اتخذ الكاتب كل هذه المعطيات لتشكل المدخل الذي اتخذه، وهو المحادثة والخطاب، وبكل ما ينطوي عليه هذا المدخل من مضامين تهتم بتقييم الحجج والبراهين.

٣ ـ الخصوصية الاجتماعية تشير إلى أن حديث الاقتصادي هو إلى الاقتصادي الآخر

يعرض كلامر هنا فكرة مفادها أنّ كتابة الاقتصادي يجب أن تكون إلى اقتصادي آخر، وأنّ علم الاقتصاد هو لمصلحة علم الاقتصاد فقط. وهذا ما تؤشره كتابات الاقتصاديين بعد الحرب العالمية الثانية، وهي ما زالت منذ أكثر من ستة عقود من الزمن تتحدث بلغة لا يفهمها غير الاقتصادي. إن كل ما ورد في الاقتصاد خلال تلك الحقبة الطويلة تتحدث عن نماذج ونظريات مغرقة بالرموز والطلاسم لا تهمّ العامة من الناس، ولا تهم المثقفين منهم، ولا تهمّ أيضاً السياسيين ومتخذي القرار، إنما تهم فئة قليلة لا تغني ولا تسمن من جوع.

٤ ـ الحديث الاقتصادي: حديث مغلق

إن مراجعة للحديث الاقتصادي عبر قرنين من الزمن تجعل المرء يقف على عدة مراحل، منها مرحلة ما بعد الحرب العالمية

الثانية. وأياً كانت سماتها، وما أحيط بها من دوافع وحوافز وضعها الاقتصاديون لاستكمال علم الاقتصاد، بناءً وهيكلة، إلا أن المرحلة الأخيرة أظهرت أن هناك ارتياباً وشكاً كبيرين تجاه معظم المنجزات الاقتصادية من نماذج ونظريات ومبرّرات. هذا الارتياب والشك كان مصدره الفجوة الكبيرة بين ما جاؤوا به والواقع، وكل هذا قاد إلى تغيّرات وإعادة النظر في معظم الطروحات من نماذج ونظريات، فقادت بالتالي إلى التفكير في اتجاهات تدعو إلى اقتصاديات الإدارة وإدارة الاقتصاد[٣]، إلا أن تمسّك البعض من الاقتصاديين بتلك الرموز والطلاسم كان مبعثه المتعة التي كانوا يجدونها فيه، لا بل هناك من أفصح عن أمر آخر، وقال إن هذه النماذج والنظريات هي أولاً وأخيراً التي تجعلنا مشغولين. وقد أشرت مقالاتهم وبحوثهم على مثل هذا الأمر، وصحة ما دعوا إليه، وهذا ما أفصح به كلامر في مقدمته.

٥ ـ علم الاقتصاد ومنهج الحديث

وإذ يطرح الكاتب صيغة الحديث في الاقتصاد، فهنا لا بد من السؤال: هل يمكن القول، وفق المعطيات التي جاء بها الكاتب، إنها يمكن أن تشكّل منهجاً مستقلاً؟ وأياً كانت أدواته وأسلوبه، فإن الكاتب، إذ يضع الصيغة البلاغية كمعطى اقتصادي، يعجز عن أن يأتي بمثلها من غير الاقتصاديين. يذكرني هذا الأمر بقول ابن المقفع قي تعريفه للبلاغة، إذ يقول: «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها»[٤]. وهذا هو التحدّي الذي طرحه كلامر في محادثته الاقتصادية، فمن يتحدث هو الاقتصادي، ومن يسمع لا بد من أن يكون اقتصادياً، ولكن هذا الإفصاح وخلق الاهتمام وجذب الانتباه نحو الحديث هو تخلٍّ ونزول من البرج العالي الذي عاش فيه الاقتصاديون عقوداً طويلة.

٦ ـ من يُسائلْ، الاقتصادي أم السياسي؟

إذا تم قبول الفكرة جدلاً بأن الاقتصاد يمثل منهجاً للحديث بين الاقتصاديين فحسب، وأنه قد حاول جاهداً أن يثبت للجمهور عامة بأن هؤلاء الاقتصاديين يعيشون في بروجهم العالية، فالسؤال هنا: هل يرغب كلامر في أن يجعل من الاقتصاد فناً شعبياً يغني به الجمهور؟ أو ربما رواية بوليسية يحاول البعض ملء فراغه بقراءتها؟ إن ما يطرحه الكاتب هو جانب متطرف في أقصى الطرف الآخر لما يطرحه الاقتصاديون قي أقصى الطرف الأول.

ومن هنا لا بد من القول إن منهج الحديث يمكن أن يكون منهجاً لثقافة عامة لمجتمع يعي إنفاقه، ويرشد استهلاكه، ويسائل السياسيين في موازنته، ويدعم استثماراته، ويقوّم أداءه، ويشارك في صياغة سياسات بلده الاقتصادية. عند ذاك يصبح منهج كلامر في حديث الاقتصاد منهجاً يتفاعل مع الميدان والمجتمع، وليس منهجاً يعمل في الطابق العاشر وله ■

(٣) انظر مراجعة سرمد كوكب الجميل، لكتاب: سالم توفيق النجفي، «الأمن الغذائي العربي (مقاربات في صناعة الجوع)،» **بحوث اقتصادية عربية**، السنتان ١٦ ـ ١٧، العددان ٤٨ ـ ٤٩ (خريف ٢٠٠٩ ـ شتاء ٢٠١٠)، ص ١٧٤ ـ ١٨١.

(٤) أحمد الهاشمي، **جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب**، تحقيق لجنة من الجامعيين، ٢ ج (بيروت: مؤسسة المعارف، ٢٠٠٤)، ج ٢، ص ١٥٠.